الكتب

في الأدب القديم :

١ — أعجاز القرآن : للأستاذ محمود مصطفى
« أخرجته جماعة دار العلوم بالقرار لجنتها العلمية »

٢ — الفروق اللغوية : لأبي هلال العسكري

٣ — معجم الشعراء : للمرزباني

٤ — المؤتلف والمختلف : لأبي القاسم الآمدي
« نشرتها مكتبة القدسي »

للأستاذ محمد سعيد العريان

كيف نفهم الأدب القديم ، وكيف نتروّاه ، وإلى أي مدى نستفيد منه ، وما وسيلتنا إلى ذلك . . . ؟

هذه أسئلة كثيراً ما تعرض لي ، حين يضمني مجلس إلى بعض المتأدبين من ناشئتنا الذين يدعون إلى الجديد ؛ وإن أعجب ما يلقاك في مثل مجلس هؤلاء ، هو الدعوة العريضة ، والانكار الساخر — أو سمّه الانكار الجاهل — والاعتداد بالنفس في غير مُعتدّ ، ثم الحكم الجامع المانع لا نقض فيه ولا استثناء . وما أيسر أن تسمع من واحد من هؤلاء . « الأدب القديم . . . ! وما الأدب القديم ؟ وماذا فيه . . . ؟ » فلا أدب عنده إلا هذا الأثر الذي تنشره له الصحف ، أو هذه الرطانة العجماء تحاول أن تستعرب على لسانه ؛ ولا إنشاء إلا على مثال برقيات « روتر » و « هافاس » ، التي يترجمها (فلان) ويدعو إلى احتذائها فيما يكتب الأدباء وينشئون . . . !

ولو أنك ذهبت تحاول أن تحمّل واحداً من هؤلاء على غير ما يرى في الأدب القديم ، أو أن تقنعه بما فيه من حياة وقوة — لأعياك أن تبلغ إليه ؛ وأنى لك أن تبلغ وما يعرف أكثر هؤلاء ولا يفهمون من الأدب القديم إلا محفوظات المدارس . . . وما حصلوا من فنون اللغة إلا القليل من قواعد النحو والبلاغة في حجرات التعليم . . . ؟ بل لو أنك أردت واحداً من هؤلاء على أن يحقق لفظة في معجم ، أو يقرأ سطراً غير مشكول في كتاب — لكنت كمن يطلب إليه أن ينقل صخرة ، أو يحفر بئراً . . . ! فمن أين لمثل هذا أن يتذوق ما تجلوه عليه من روائع الأدب القديم ؟

وطائفة أخرى من هؤلاء المتأدبين آمنت عن تلقين ، أو تقليد ، بأن في الأدب القديم ثروة مخبوءة ، ومنجماً حقيقاً بالجهد وحسن الاستغلال ؛ فراحت هذه الطائفة — طمعاً في الثروة وحسن الاستغلال وحسب ! تحاول أن تعثر بشيء تسيغه ، أو تجد لَقًى تسعى اليه ، ولكنها لم تأخذ الأهبة ، ولم تهيء الأسباب ، وحسبت أن في أظفارها اللينة غَناءً عن الفئوس والمساحي في الحفر والتنقيب ؛ فلما آبت أوبتها الخاسرة ، عادت تعيب ما كانت تباهي به ، وتنكر ما كانت تعترف ؛ ولو أنصفت لعابت الجهد الكليل والعزم الخائر

وقد جلست مرة إلى آنسة متأدبة تشتغل بشؤون التعليم ، فلقيتني متعبة مكدودة وهي تقول : « حسبي منك يا صاحبي ومن أدبك القديم ! » قلت : « ماذا يا آنسة ؟ » قالت : « هذا (نهاية الأرب) بين يدي منذ أيام ثلاثة ، أحاول أن أجد فيه شيئاً يفيد تلاميذاتي فأترجمه لهن في كتاب المطالعة الذي أشتغل بتأليفه فما وجدت . . . ! »

وكان هذا أول عهد صاحبتي بالأدب القديم ، وقد لجأت إليه أول ما تلجأ ، لتجد بغيتها تحت عينيها ؛ فلما استيأست ونال منها الجهد ، رمت الكتاب وهي تسب الأدب القديم ، وتعيب الأدب القديم !

وإنما يتأتى الفوز بمثل ذلك لمن أدمن الاطلاع والنظر ، ودأوم البحث والاستقراء ، فيقرأ أولاً ليتدرس ويلقّ نفسه ، حتى إذا بلغ من ذلك ما بلغ ، جاءته الثمرة عن حيث لا يطلبها ، ووجد الفائدة تحت حينيه تدلّ على موضعها . وهؤلاء ما الباحثون

جميعا لم يؤدوا إلينا نتائج ما بحثوا مستوفاة ناضجة لأنهم أرادوا أن يلقوا هذه النتائج أول ما قرءوا ؛ إنما كانت القراءة أولا ؛ ثم شماع الفكرة ، ثم عناصر البحث ، ثم هذه الثمرات التي نقرؤها فنعجب بها فنثني على ما جاهدوا وظفروا ؛ ولو أنهم أرادوا موضوع البحث قبل أن يقرأوا ، لكان غاية جهدهم أن يخترعوا عناوين البحوث . . . !

وهذا أديب آخر يظفر بالشهرة والجاه عند دعاة الجديد ، ويحسبونه واحداً منهم ، لأنه يكتب بأسلوبهم وعلى طريقتهم ، لقيته مرة فحدثته وحدثني ، فقال لي : « دعهم يقولون عني ، وينسبون إليّ وينتسبون ؛ ولكني لا أكذبك ، فكم تمنيت أن يكون حظي من الأدب القديم أكثر مما عندي ، وسأبلغ ذلك ، وسيعلم أصدقائي يومئذ أنني لم أكن في المجددين لأني أنكر القديم ، بل لأن زادي وثروتي من اللغة لم يكن يبلغ بي أن أكون مع غير الذين يسمونهم مجددين . . . ! »

أفينكر اخواننا في اللغة أن هذه النهضة التي ينتسبون اليها لم تكن من صنعهم ؟ وإنما هيأ أسبابها وأذكاها تلك الكتب القديمة التي يسبونها اليوم حين نهض لنشرها أدباؤنا منذ قرن فدرسوها مخطوطات باليةً مركومة ، وخلفوها لنا مطبوعةً مصححة مجلوة .

ولكل عمل أداته ووسيلته ، وإنما الوسيلة لدراسة هذه اللغة هي النشاط الدائب في التحصيل ، والجهد المتصل في الاستقراء ، والمحاولة المستمرة للكشف والبحث والاطلاع . ولهذه اللغة أصول لابد من الاحاطة بها قبل الشروع ، وعندها طرف الخيط ، فمن شاء فليبلغ إلى الغاية . . .

* * *

أما بعد فهذه كتب أربعة ، لم أكن بحاجة في تقديمها إلى كل ما أسلفت ، ولكنها جميعاً من الأدب القديم ؛ وللأدب القديم ملمس خشن ، أفيدري اللابسون ما وراء . . . ؟

١ — اعجام الاعلام :

أكثر ما يعاني المطالع في الكتب القديمة ، هذه الأعلام الكثيرة في كل سطر وفي كل عبارة مما يقرأ ؛ على أن أشق ما يعانيه في هذه الأعلام ، هو ضبطها والتمييز بينها ؛ وحسبك أن تعلم أن أكثر هذه الأعلام ليس مما يسمى به في هذا الزمان ، فلا سبيل إلى تصحيح نطقه إلا بالسماع والرواية ، ولا سبيل إلى الترجمة لسمّاه — إنسانا كان أو بلدا — إلا بالبحث الطويل والجهد المضني ، على أن ذلك لا يتأتى لكل طالب ؛ فأنت لا تجد كتابا في العربية يُستغنى به عن سواه في هذا الباب

والأستاذ محمود مصطفى أستاذ الأدب العربي بكلية اللغة العربية الأزهرية ، رجل دءوب كثير البحث ، طويل الأناة ؛ وهو قد لقي في شتى مطالعاته ضروبا من العناء في ضبط الأعلام والتعرف الى أصحابها ؛ فاجتمع له بسبيل ذلك فيما اجتمع من ثمرات المطالعة طائفةٌ كبيرة من أعلام الأماسي والبلاد مضبوطة مترجمة لا تجتمع لمثله حين ينشدها إلا بجهاد سنوات وسنوات ؛ فرأى أن يقدّم هذه الثمرة الجليلة إلى أدباء عصره ، ليخفف عنهم بعض ما لقي ، على أنه لم يثقل عليهم بما لا حاجة بهم اليه . فاكتفى من عمله بضبط الأعلام وتصحيحها ، ثم إيجاز ترجمتها بما يقتصر على ما يفيد ، بعيدا من الاختصار المخلّ والتطويل الممل ؛ وقد أعانه على إخراج كتابه « جماعة دار العلوم » باقراز لجنتها العلمية ؛ ومن غير جماعة دار العلوم تعرف قيمة هذا العمل الجليل ؟ على أن ذلك وإن يكن من واجبها ، لا يمنعنا أن نذكر عملها شاكرين ، فقلّ في هذا الزمان من يذكر واجبه بمقدار ما يفكر في وسائل الفرار منه !

وأكثر الكتاب في ضبط أعلام الأماسي ، وأقله لأعلام البلاد . ولو أنني حاولت الانصاف لما وسعني إلا أن أعترف بأن هذه الصفحات المائتين والأربعين ، تغني عن مكتبة حافلة بكتب التراجم ومعاجم الأعلام

ولكن اعجابي بالكتاب وثنائي عليه لا يمنعان أن آخذ على مؤلفه العالم أنه أهمل الاشارة الى المراجع التي منها استمدّ ؛ وأحسبه كان يجعله لنفسه فلا يهتم بحفظ المصادر ، فلما اجتمع له هذا القدر الكبير أخرجه كتاباً . أفيدفع عنه النقد هذا الاعتذار . . . . ؟ ؟

وفي الكتاب أشياء كانت تقتضي جهداً أوسع ، وعناية أدق ، فالتعريف بالأماكن قليل مخل ، وأرى المؤلف في هذا الباب لم يُفد إلا ضبط أعلام المواضع ، أما تحديدها وتعيين أماكنها فما بلغ منه الى كثير . وتراه في أكثر من موضع من الكتاب ،

قد أوجز الحديث وأحال الى موضع آخر ، فاذا انتقلنا الى ذلك الموضع لم نجد شيئاً مما أحال اليه ، أو نجد شيئاً ولكنه لا يغني كل الغناء ؛ فمن ذلك في ص ٧٦ « . . . . بسطام ، وهي بلدة مشهورة من أعمال قومس » ، فاذا بحثت عن (قومس) هذه في أعلام البلاد وجدت (القوامس) كثيرة ، فلا تعرف الى أيها تنتسب (بسطام) . وفي ص ٩٤ : « كان منزل رهط (جبل) في وادي القرى (انظره) . . . » وتنظر في أعلام البلاد ، فلا تجد ذكراً لوادي القرى . ومثل ذلك في ص ١٢٨ ترجمة الشَّهْرَوَرْدِيّ « ونسبته الى سهرورد ، وهي بلدة (انظرها) » ولكن أين ؟ وغير ذلك كثير

على أن الكتاب مع ذلك لا يستغني عنه متأدب ، وإن فيه لغناء عن كتب ومكتبة ، وأكثر مصادره مما لا تتناوله الأيدي ، وهو مجهود مشكور ، جدير بالثناء والاعجاب

٢ — الفروق اللغوية

أبو هلال العسكري إمام من أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري ، تحتفظ له المكتبة العربية بآثار خالدة ؛ أكثرها معروف متداول ، وهو الى أنه شاعر وأديب ، عالم نحرير ، واسع المعرفة ، صنَّف في أكثر من فن من فنون العربية ، وهذا كتابه « الفروق اللغوية » يبحث في الفرق بين الألفاظ التي تؤدي معاني متقاربة ، والتي يسميها علماء اللغة مترادفات ، وهو في هذا الكتاب يقرر مذهباً في اللغة : « أن كل اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من الأعيان في لغة واحدة ، فان كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر ، وإلا لكان الثاني فضلا لا يحتاج اليه ... لأن في ذلك تكثيرا للغة بما لا فائدة فيه ... إلا أن يجيء ذلك في لغتين ، فأما في لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد كما ظن كثير من النحويين واللغويين .... »

فهو يرى كل لفظين مما نسميه مترادفاً ، يختلفان في المعنى ، أو في الصفة ، أو الاستعمال . أو الاشتقاق . . . وتراه على هذا المذهب يسير في كتابه ، يبين الفرق بين اللفظ ومرادفه ، في أبواب مقسمة على معاني الكلمات ، تريك دقة أبي هلال ، وسعة علمه ، وصدق نظره في فقه اللغة العربية ، والكتاب كله أمثلة على ما ذكرت

ولو أن كاتباً من أبلغ أدباء هذا الزمان ، عرض كلامه على كتاب « الفروق اللغوية » ، لبانت له قيمة ما يكتب بازاء ما يجب أن يكتب ، ولعرف مقداره بين كتّاب العربية حين يعرف أين عربيته من العربية الصحيحة . وهذا وحده الدليل كلُّ الدليل على جدوى هذا الكتاب في كل زمان ، لا سيما هذا الزمان !

٣ — معجم الشعراء : ٤ — المؤتلف والمختلف

يعترض القارىء في أثناء مطالعاته في الأدب القديم ، أسماء شتى لشعراء من مختلف العصور ، فتختلف عليه ، وتشتبه فكره ، وتتشابه في مسمعه ، ويا أكثر ما يشترك شاعران أو أكثر في اسم واحد ، فتتداخل الصور وتزدحم عليه ، فما ينبغي له أن يحكم حكمه في موضوعه ، أو يتضح له منهاج بحثه ، إلى أن يعرف ترجمة كل شاعر من هؤلاء ، معرفة تحدد في الذهن صورته وتكشف عن ابهامه ، وسبيل هذه المعرفة لا تكون إلا بمثل هذين الكتابين

والمرزباني والآمدي علمان من أعلام القرن الرابع الهجري ، لهما في الأدب العربي فكر وفنّ وبيان

والكتابان على ما اختلفا في الغرض يلتقيان في الموضوع ، فأولهما يترجم لشعرائه ترجمة تعرّف بهم في ايجاز مفيد مع استشهاد رائق ، على أن الذي بين يدينا من كتابه هو جزء منه أحسبه يبلغ ثلثيه

وأما الآمدي فيترجم للشعراء المشتبهة أسماؤهم وحسب ، ترجمةً تزيل الشبهة وتكشف اللبس ، ويجمع هذا الكتاب مع الجزء الموجود من معجم الشعراء — أكثر من ألفي شاعر ، بأسمائهم ، وكُناهم ، وألقابهم ، وأنسابهم ، وبعض شعرهم . وقد أحسن ناشرهما احساناً كبيراً بضم بعضهما الى بعض في مجلد واحد ، ليكون النفع بهما أتم والغاية أوفى

ولا نشك أن مكتبة « القدسي » بنشرها هذين الكتابين ، وكتاب « الفروق اللغوية » قد بذلت جهدا ، ويسرت نفعاً ، وعمت فائدة ، وهذا باب في خدمة العربية يُذكر فيه العاملون ما

(شبرا) محمد سعيد العريان